عادات الاحتفال بدورة الحياة في منطقة الطارف
مرحلة الميلاد أنموذجا . دراسة ثقافية .

الدكتور : عبد اللطيف حني
الأستاذة: سهام سلطاني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

ملخص:

يتمحور الحديث في هذه المداخلة حول عادات الاحتفال بدورة الحياة في منطقة الطارف التي تعد ذات تعبير صادق عن تراث هذا الشعب، ومرآة تنعكس عليها صور نابضة عن حياته وآماله وآلامه، وقد حاولت الدراسة تشخيص الممارسات الاحتفالية لعادات مرحلة الميلاد، باعتبارها تشكل مرحلة مهمة في رحلة الإنسان عبر الحياة، مع كشف الجانب التراثي المتمثل في الأغاني الشعبية التي تشكل المخزون التراثي الأصيل لهذا الشعب.

الكلمات المفتاحة: العادات الشعبية،الاحتفال، دورة الحياة، الميلاد.

Résumé

La discussion s'articule dans cette communication autour de la célébration du cycle de la vie dans la région d'el tarf qui est en relation étroite avec le patrimoine populaire et une expression sincère du patrimoine de ce peuple et un miroir reflétant une image éclairée de son existence, de ses espoirs, de ses douleurs, Cette étude a essayé de diagnostiquer les pratiques estivales des traditions de la naissance qui constituent une étape importante dans le périple de l'homme à travers son existence, en révélant le volet patrimonial caractérisé par les chansons populaires qui représentent le réservoir patrimonial authentique de ce peuple.

Mots clés :traditions populaires, célébration, cycle de la vie, naissance.

تمهيد:

إن لكل شعب من شعوب العالم تراث فكري خاص به، ويعتبر من العوامل الأساسية التي تتميز بها الأمم بعضا عن بعض. فالتعبير عن الحياة الإنسانية يشكل إحدى المتطلبات الضرورية في الحياة، كما أن تفاعل الإنسان مع بيئته والأحداث التي يعبر بها من أفراح وأحزان تصور الواقع المعاش، فهي تعكس مشاعر الناس وأفكارهم وتصوراتهم ومعظم مظاهر نشاطات حياتهم. فللعادات الشعبية أهمية كبيرة بالنسبة للشعوب، وشرطا أساسيا من شروط وجوده والحفاظ على هويته ووحدة الثقافة بين أبناءه، والربط بين ماضيه وحاضره.

فالعادات الشعبية المرتبطة بدورة حياة الفرد هي ذلك السلوك الاحتفالي الجمعي والممارسات الحياتية المتعلقة بميلاد الفرد وزواجه، بما تضمه تلك الممارسات من صيغ إبداعية تؤكد على طبيعة الاحتفال وترسخ مفهومه بين الناس. فكل إنسان يولد والأرجح يحتفى بقدومه لأننا نعيش هذه الحياة وندور معها من البداية حتى النهاية. فالعادات الشعبية تتسم بكونها منتشرة بين كل الأعمار، وكل الطبقات، وكافة الأنحاء والمناطق، فالجانب الأكبر منها عادات الميلاد فهي ترتبط

بأمور معيشية يومية دنيوية لا قدسية دينية لها ولا محاذير غيبية تتعلق بها، وإنما تحكمها تقاليد وأعراف وعادات اجتماعية من صنع الإنسان في حد ذاته.

أولا. مفهوم العادات الشعبية :

يعد مصطلح العادات من المفاهيم الأساسية في دراسة الحياة الشعبية، ولذلك كثيرا ما دار الجدل حول أهميتها ويتضح المدى الواسع للتفسيرات المقدمة في كثرة التعريفات التي وضعت لهذا المصطلح، من بينها أن العادة "هي كل حركة أو فعل أو قول يبدر من أي شخص ثم يتكرر منه ويعاد في مناسبة يصبح بالنسبة لهذا الشخص عادة " [1].

إن العادة ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، هي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي فتصادفها في كل مجتمع تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة عند الشعوب البدائية كما عند الشعوب المتقدمة، عند الشعوب في حالة الاستقرار وفي حالات الانتقال والاضطراب والتحول، و هي موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وإرادة مطلقة، كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها في ظل مجتمعاتنا العلمانية المتطورة [2].

والعادات الشعبية هي ذلك السلوك المكتسب الذي يشترك فيها أفراد شعب معين وتعد هذه العادات معايير ينظر إليها، على أنها ذات قوة اجتماعية من شأنها أن تحدث رد فعل في المجتمع، وهي ظاهرة اجتماعية تمثل أسلوبا اجتماعيا بمعنى أنها لا يمكن أن تتكون وتمارس إلا بالحياة في المجتمع والتفاعل مع أفراده وجماعاته، ومن أمثلة العادات التي توضح الأسلوب الاجتماعي في التصرف عادات التحية، وطرق الزواج وإقامة الحفلات في المناسبات المختلفة، تتوارثها الأجيال نظرا لكونها مرغوبة ومحمودة، وهي تتضمن معتقدا معينا بأنها تشبع حاجة لدى أعضائها وتنمو بطريقة لا شعورية نظرا لكونها تلقن للمرء منذ نعومة أظافره[3].

اهتم الأنثربولوجيون اهتماما خاصا بالعادات على أساس أنها تساعد على تكوين أنماط الأفعال ونماذج الأفكار، فاستخدموا هذا المصطلح على جميع مستويات التجريد، وقد اهتموا اهتماما خاصا بالأفعال الروتينية للحياة والقواعد المستخدمة بطريقة نمطية، وكذا الأنماط الثقافية التي يمكن مشاهدتها في الأفعال المتكررة المميزة للكل الثقافي [4].

وبالتالي تسهم العادات الشعبية في دراسة جميع العلوم التي تهتم بالإنسان في مظاهر حياته الاجتماعية والتاريخية، وميدان العادات الشعبية رحب فهو يشمل على عادات الميلاد، والزواج، والوفاة كذلك المناسبات المرتبطة بدورة العام مثل الأعياد الدينية كرأس السنة الهجرية والمولد النبوي الشريف، كما تشمل أيضا المواسم الزراعية والمراسم الاجتماعية كالاستقبال والتوديع.

ثانيا. أنواع العادات الشعبية:

تنقسم العادات الشعبية التي يكتسبها الفرد إلى عادات فردية وعادات جماعية :

أ. العادات الفردية :

هي ظاهرة شخصية يمكن أن تتكون وتمارس في حالات العزلة عن المجتمع، يكون فيها الإنسان مجموع عادات تمشي على الأرض، بل قيمته في بعض الأحيان تعتمد على عاداته، فطريقة لباسه وكلامه وعقله من تهذيب وتربية كلها عادات فردية تسهم في نجاح الفرد وانسجامه مع الحياة. هذه العادات لا تستمر إلا أنها تقوم بوظيفة فهي تقوم بوظيفة فهي تسهل العمل المعتاد وتجعل تكراره سهلا، وهي تؤدي إلى قيام الإنسان بأعماله في زمن أقل وبتركيز أقل[5].

ب . العادات الجماعية :

إذا نشأت عادة تبعا لظروف مشتركة في مجتمع معين ومارسها عدد كبير من الأفراد فمن الممكن أن تصبح عادة جماعية، فهي مجموعة من الأفعال والأعمال وألوان السلوك التي تنشأ في قلب الجماعة بصفة تلقائية لتحقيق أغراض

تتعلق بمظاهر سلوكها وأوضاعها. فقد تحدث ابن خلدون عن أهمية العادات الاجتماعية، وكيف أن الإنسان ابن عوائده لا ابن طبيعته "وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفة لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة و اعتبر ذلك في الآدميين نجده كثيرا صحيحا، والله يخلق ما يشاء "[6]. وقد تنطوي العادات الاجتماعية العامة والخاصة على فعل مادي محسوس وعلى معتقد مشترك، فالعادات الاجتماعية التي اكتسبت قدرا كبيرا من القوة السحرية أو المقدسة تعرف باسم الطقوس. يؤدي اشتراك وحدات كبيرة في الأفعال وعمليات الترفيه العامة إلى نوع آخر من العادات الاجتماعية الشعبية والتي تعرف على وجه العموم باسم الأعياد والاحتفالات، وقد تدخل الموسيقى والرقص، الأزياء التقليدية الخاصة، والمواكب كعناصر في الاحتفال بالأعياد التي ترتكز على تراث ديني ودنيوي على حد سواء[7].

ثالثا. مفهوم الاحتفال:

الاحتفال هو مجموعة من الممارسات والأفعال التي تتعلق بالمناسبات العامة فهي ترتبط بالتغيرات الكونية كتعاقب الشهور والفصول والسنين، أو بالأحداث والاحتفالات التي تتم بصفة دورية في المجتمع، أو بأزمات المجتمع ومشكلاته كعدم سقوط الأمطار مثلا. واشتراك أفراد المجتمع في تلك الاحتفالات يعكس مدى التضامن الاجتماعي بين أفراده، كما أنها تعد بمثابة تدريب وإعداد الأفراد لمواجهة المواقف والأزمات الحياتية يتضمن الاحتفال ملاحظة للأنماط السلوكية المتكررة خلال المناسبات الدينية أو الشعبية، بالإضافة إلى أنها توضح بعض الحركات والإيماءات الفردية أو الجماعية التي تشير إلى الطاعة والخضوع والإذعان، فدراسة الاحتفال هي دراسة للأفعال النمطية وفحواها الثقافي والاجتماعي[8]، فالاحتفال هو التعبير عن المشاعر والاتجاهات والمعتقدات الثقافية والدينية، كما أنه قد يخلو من المعنى الظاهري أو قوة الإلزام بالنسبة للأفراد الذين يشاركون فيه.

رابعا. دورة الحياة :

تشمل دورة الحياة على عدة مناسبات يحتفي بها الفرد في وسطه الاجتماعي وعلى مدار السنة، باعتبارها جزء لا يتجزأ من حياته الاجتماعية والاقتصادية، وتشكل محطات رئيسة في رحلة الإنسان عبر الحياة وتشمل دورة الحياة على:

أ. الميلاد:

تعتبر ولادة الطفل أولى مراحل دورة الحياة الإنسانية لأنها تمثل أهم الأحداث في حياة أي عائلة. لذلك يبدأ الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة قبل الوضع من طرف الأم الحبلى التي تهيء الجو المناسب والملائم لاستقبال مولودها الجديد، الذي يعد اللبنة الأولى في تركيب وبناء المستقبل وأملها في استمرار الحياة، قال الله تعالى:"المال و البنون زينة الحياة الدنيا "[9]. فالله عز وجل فطر نفوس الآباء والأمهات على حب الأطفال ف" العمليتين الأوليتين وهما (الحمل والولادة) عملان ينبثقان من طبيعة المرأة وحدها إذ خصتهما بهما دون الرجل، وهما من الأعمال الممتعة لديها وتتقبلهما برضا مع ما فيهما من مشقة وعناء، وتأخذهما على أنهما من أساس حياتها"[10].

فميلاد الطفل حدث مهم في حياة الآباء، لأن إنجاب الأولاد امتداد لوجودهم واستمرارهم في الحياة، وميلاد الطفل لا يمثل بداية وجوده، ولكن ميلاد الطفل يأتي به إلى بيئة مختلفة تمام الاختلاف عن البيئة التي كان يعيش فيها.

خامسا. عادات الاحتفال بالميلاد :

يحتفل المجتمع الشعبي بالطفل احتفالا خاصا، فالطفل هو بداية الحياة وهو في ميلاده وفطامه ونموه رمز متجدد لتجدد هذه الحياة، وينسج المخيال الشعبي حول حمله وميلاده الكثير من العادات والمعتقدات التي تستهدف حمايته من

الأخطار المحيطة به. فالمحطات التي يمر بها الطفل في حياته تشكل بدايات حاسمة تحدد مصيره في المستقبل، كما يمر نموه الجسمي والاجتماعي ببعض المراحل الحاسمة التي تلازم نموه فتهتم العادات الشعبية بتلك المراحل من خلال الاحتفالات فتنسج حولها الأفكار وترسم فيها أساليب السلوك، وتتحوط بكافة السبل ضد ما يتهدد كيان الطفل من أخطار. ومن بين هذه المراحل الهامة في حياة الطفل انقضاء الأسبوع الأول من عمره وهو بمثابة قبول وإدخال الطفل للمجتمع من خلال عملية التسمية من ناحية وتأكيد للوجود الاجتماعي للطفل من ناحية أخرى، كما أن انقضاء السنة الأولى من عمره يعد من المراحل الهامة حيث يكون الاحتفال بعيد ميلاده الأول من خلال قص شعره، ومشيه لأول مرة وكذلك كلامه، كل تلك المراحل تشكل محطات حاسمة وهامة في حياة الطفل.

1. عادات الاحتفال بمرحلتي الحمل والولادة :

تعتبر مرحلة الحمل من أهم المراحل التي تمر بها المرأة، وهي مرحلة يمتد زمنها أشهر من الحمل من قبل الأم لجنينها لأن أي تغيرات قد تحدث للأم والجنين في مرحلة حمله يكون لها أثر بعيد في حياة الجنين، بحيث تتلقى المرأة الحامل رعاية خاصة، وتعتبر العادات والممارسات المرتبطة بفترة الحمل مرحلة حيوية وبالغة الأهمية بين مراحل الحياة التي تمر بها المرأة تحاط بعدة نصائح من مثل مراجعة أخصائية للإشراف على الأم والجنين طوال فترة الحمل، والاهتمام بتغذية وصحة الأم إلى جانب الراحة النفسية والجسمية. فأغلب العادات الشعبية التي تمارس إزاء الجنين تستهدف حمايته من الأخطار المحيطة به أثناء فترة الحمل، ومن الأغاني التي كانت تردد أثناء فترة الحمل : [11]

سَعْدِيْ زْمَانِي سَعْدِيْ زْمَانِي
كَانْ مْع اَلْعِرْسَانْ وُجَانِي
نَذْبِحْلِكْ كَبْشِ السُلْطَانِي
زِيدْ لْيَا يَا مِسْكِينْ
تَشْرِطْ وِتْقُولْ شْوِيَا

من العادات الشعبية التي كانت تمارس أثناء فترة الحمل التنبؤ بجنس المولود، فالمرأة الحامل التي تشعر بتحرك جنينها في وقت مبكر من الحمل تأتي بمولود ذكر، أما إذا تأخر شعورها بتحرك جنينها فإنها تتوقع أن تضع أنثى. وكان المؤشر الوحيد لتوقع جنس المولود هو معيار الجمال والنحافة ومن المقولات المتداولة في هذا المجال نذكر:"**الطفل يقول أيما إشياني وكي تحطيني إزياني والطفلة تقول أيما إزياني وكي تحطيني أشياني** "

2. العادات المتعلقة بالولادة :

لعل أسعد و أعظم أيام العائلة هو يوم ميلاد الطفل لأنه بمثابة ميلاد روح جديدة، فالولادة حدث مهم في المنطقة فكانت النسوة في القديم تلدن في البيوت لصعوبة التنقل إلى المستشفى خاصة سكان الأرياف والمناطق الجبلية فيتخذن من الأكواخ مسكنا لهم، ومن العادات المتبعة في الولادة قديما أنه كان يصنع للمرأة المقبلة على الولادة حبل سميك مكبس بالصوف، وهو خيط ملفوف بعقد محكم ويفتل بفتل فظي يربط في الركيزة الأساسية للكوخ بغرض أن تمسكه المرأة أثناء الولادة ويطببنها ثلاثة نسوة، أما عملية الولادة فتتم بشكل خاص في المستشفى وفي العيادات المتخصصة، والولادة بشكل عام هي مرحلة خروج الجنين الناضج للحياة خارج رحم الأنثى "يخرج الجنين من رحم أمه صارخا وتبدأ هذه المرحلة بالصرخة الأولى والتي سميت بصرخة الميلاد، حيث يصدر الطفل منذ البداية تغيرات تحقق له تكيفا معقولا، وأولى هذه التغيرات الصراخ الذي يستقبل به الحياة "[12] .

بعد خروج الجنين يقص الحبل السري بمقدار ثلاثة أصابع، وتربط سرة المولود وتوضع عليها القليل من زيت الزيتون، أو كحل السرة الذي تكتحل منه الأم إذ كان لهذا الكحل طريقة خاصة في الصناعة حيث يشوى كل من حجر الكحل والزنزار ويضاف إليهما خليط آخر مطحون مكون من السواك وثلاث أو أربع حبات قرنفل وحبي عفص، ثم ترطب المكونات السالف ذكرها وتوضع في قارورة والهدف من وضع الزيت أو الكحل هو تسريع وتسهيل تجفيف غلق السرة. هناك بعض الممارسات التي تجرى للطفل كربط السرة حتى تلتئم لأنها مكان القطع من الحبل السري وحتى لا تظل بارزة على مستوى الجسم أي حتى تدخل في مكانها الطبيعي، أما فيما يخص الجانب المنزرع من السرة فهناك من الأمهات من يدفنه وهناك من يربطنها في أحزمتهن باعتقاد أن الطفل سيبقى حنون على أمه طيلة حياته، و هناك من يحتفظ بها وعندما يدخل الطفل المدرسة يقوم برميها هناك حتى يشب على حب المدرسة. كذلك ربط الرأس وعدم يترك الطفل لينام على جنب واحد حتى لا يؤثر هذا الوضع على عظامه اللينة وهنا اهتمام بالناحية الجمالية للمولود، ويوضع المصحف تبركا وحماية للمولود حتى تحيطه الملائكة وتبتعد عنه الأرواح الشريرة. ومن الأغاني الشعبية التي كانت ترددها النسوة احتفالا بالمولود الجديد:[13]

سَعْدِي بِيهْ سَعْدِي بِيهْ أَيْتِيمَا وِينْ لَقَيْتِيهْ

رَبِّي رَاوْ يْكَمِلْ بِيهْ عْطَاكْ اَلْعَالِي وَدِكْ بِيهْ

جَابْتُوا لِبْغَالْ تْرِنْ يْكَرْكِبْ وِيَحُطْ بَحْذَاهَا

وِيْعَيِطْ عَلَى الزُوَالِي مْعَاهَا

يحتفل بالطفل احتفالا كبيرا كما يحضر طبق الزريرة في ذلك اليوم، ويحضر العشاء ويدعى إليه الأقارب وبعض الجيران ويسمى بعشاء المولود وتقدم التبركة للمولود الجديد احتفالا به.

3. عادات الاحتفال بالمولود:

أ. **تسمية المولود:**

من العادات الاجتماعية المتبعة أن المولود حين يولد يختار له أبواه اسما يعرف به ومن حقوق الطفل على والديه حسن اختيار الاسم الذي يدعى به بين الناس ويميزه عن غيره من الأشخاص، بحيث يكون اسما ذا معنى أو صفة طيبة يرتاح لها القلب وتطمئن لها النفس أو اسما يبعث على الأمل والفال الحسن، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم، وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسمائكم "[14].

يتم اختيار اسم المولود تبعا لاعتبارات متعددة تختلف باختلاف محل الولادة في المناطق الريفية والحضرية، كما تختلف باختلاف الثقافة والتعليم والتقاليد والدين، حيث يطلق بعض الآباء أسماء أبائهم وأمهاتهم على مواليدهم إعزازا لهم وتخليدا لذكراهم، فهناك من العائلات من تحرص على تسمية أبنائهم بأسماء مقدسة من مثل عبد الله و محمد ... ويتحدد اسم المولود في بعض الحالات من خلال طقوس معينة ومثال ذلك أن يطلب الأب تسمية مولوده باسم جده، وفي بعض الحالات يدعى أقارب المولود إلى العشاء بعد ذبح ذبيحة احتفالا بالمناسبة كما يطلق بعض الآباء على بناتهم اسم طاهرة، شريفة، سامية تبيانا لكرم أصلها وإعلاءا لقيمة ونبالة العائلة، أما بالنسبة للمرأة التي تجهض مواليدها مباشرة بعد الولادة تطلق عليهم أسماء مشينة مثل هاملة، وهامل، أو حدة لكي تحد من الموت والهدف من هذه التسميات هو حفظ المولود ووقايته من أي عين حاسدة أو شريرة ولكي يبقى على قيد الحياة.

ب . ملابس المولود :

ملابس المولود عادة تجهز مسبقا وعلى هذا الأساس كانت الأنثى المولودة قديما تلبس بخنقا، وهي قطعة من قماش مستطيلة تثنى من منتصفها ثم تخاط من إحدى الجهتين مع ترك مسافة تسمح بمرور الوجه ويكون طولها مساوي لطول المولودة. أم الذكر فكان يلبس عصابة وهي قطعة قماش يربط بها رأس المولود حتى ينمو بشكل مستقيم، وقد جرت العادة على لف المولود بالقماطة وقد شاع استعمال القماط اعتقادا بأنه يقوي عضلات اليدين والرجلين عند الطفل، كما أنه يحافظ على وجهه وعينيه وجسمه من الخدوش التي تسببها أظافره.

ومن الأغاني المصاحبة لعملية القماط قولهم :" **الضيف لي جانا وفرحنا بيه بايت مربوط ونحنى نعسو عليه** "، أما بالنسبة للعادات المصاحبة لملابس المولود فيجب أن لا تعصر بعد الغسيل إطلاقا على اعتقاد أن المولود سيعتصر ألما، كما أنها لا تترك عند المغرب عندما تتمسى الشمس حتى تبقى في مأمن من المس والأرواح الشريرة التي تهدد كيان المولود، كما يعامل الذكر معاملة الأنثى في لباسه لأن الطفل الذكر أكثر عرضة للحسد والعين لذلك تحرص الأمهات على تعليق خمسة في ملابس المولود تجنبا للحسد.

ج . **نوم المولود:**

يجهز للمولود سرير من خشب أو ما يسمى بالدوح ويوضع فيه المولود. ومن أغاني المهد التي كانت الأمهات في المنطقة يرددنها لأولادهن منها : [15]

نَنِي نَنِي يَا بِشَا وَاشْ نْطَيْبُو لِلعْشَا
نْطَيْبُو جَارِي بِدَبْشَا وَنَعْطِي لْوِلْدِي يِتْعَشَى
نَنِي نَنِي أَدَاكْ نْعَاسْ أُمُكْ فَضَّه وَبَابَاكْ نْحَاسْ

أما إذا كان الطفل كثير البكاء ليلا فقد كان يوضع تحت فراشه مفتاح أو سكين التي قطع بها حبله السري مع القليل من الكمون حتى لا تقربه الشياطين، ومن الأغاني التي تردد لتغنيج المولود: [16]

هَاوْ الزِّينْ هَاوْ الزِّينْ وِلِي مَا قَالِشْ الزِّينْ
يَعْمَى مِنْ عَيْنِيهْ لِاثْنِينْ حَتَّى مِنْ بَابَاهْ وَجَدُو
حَتَّى مِنْ خَالُو عَمَّارْ حَتَّى مِنْ سَارِحْ لِبْقَارْ

4. عادات الاحتفال بعقيقة المولود :

العقيقة هي" الذبيحة عن المولود وقيل هي الطعام الذي يصنع ويدعى إليه من أجل المولود، وأصل العقيقة الشعر الذي على رأس المولود ثم سميت بذلك الذبيحة التي تذبح عند حلق شعره على عادة العرب في تسمية الشيء باسم سببه أو ما جاوره "[17]، وقد كان أهل الجاهلية يفعلونها إذ كانوا يلطخون رأس المولود بدم العقيقة تبركا به فإن دم الذبيحة كان مباركا عندهم، فأقر الرسول صلى الله عليه وسلم الذبح وعوض عنه ما أنفع للأبوين وللمولود وهو حلق رأس الطفل والتصدق بزنة شعره ذهبا أو فضة، وسن لهم أن يلطخوا الرأس بالزعفران الطيب الرائحة بدلا عن الدم الخبيث الرائحة، وكان حلق رأسه إماطة للأذى عنه وشرع في المذبوح عن الذكر أن يكون شاتين إظهارا لشرفه وإبانة لمحله الذي فضله به على الأنثى[18] .

تعد العقيقة قربانا يقرب به عن المولود في أول أوقات خروجه إلى الدنيا والمولود ينتفع بذلك غاية الانتفاع، وضمن هذه المناسبة يحتفل بعقيقة المولود حمدا وشكرا لله عز وجل على هذه النعمة التي أكرمهم بها، فطبقوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادة ما تكون في اليوم السابع من ولادته حيث يقومون بذبح شاة، فقد قيل عن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العقيقة فقال: "عن الغلام شاتان وعن الأنثى واحدة ولا يضركم ذكرانا كن أو إناثا "[19]، وبذلك تسمى العقيقة عند الذبح ويقولون في ذلك "باسم الله اللهم لك وإليك هذه عقيقة فلان أو فلانة بنت فلان ". ومن العادات المتبعة أنه يتم تحضير الغداء للأهل والجيران ويعدون طبقا رئيسيا في هذه المناسبة وهو الزريرة، ومن الأغاني الشعبية التي تردد أثناء عقيقة المولود : [20]

اَلْوَلِيدْ اَلْوَلِيدْ وِلِجَابِكْ مَعَادْ يْجِيبْ
أَسِعْدِكْ يَسِعْدُوكْ أَيْ اَلْحُمَى تِدِي عَدُّوكْ
تِدِي النَّاسْ اِللِّي يَكِرْهُوكْ وِتْخَلِي النَّاسْ اِللِّي يْحِبُّوكْ
اَلْوَلِيدْ نَفْرَحْ وِنْغَنِي تِكْبِرْ وِتْعِيشْ مِتْهَنِي
يَا اَلْوَلِيدْ جَابِكْ رَبِّي اَلْجَوَّادْ تِكْبِرْ وِتْعُودْ قَدْ جَدِّكْ وَجَدِّاكْ

5. عادات الاحتفال بالبدايات الأولى لما يفعله الطفل:

الملاحظ بصفة عامة أن ذلك الاهتمام قد يكون من طرف الأسرة كلها، وقد يكون مقتصرا على الأم وحدها وتلك البدايات التي تكون لها أهمية كبيرة يجب العناية بالتصرف فيها، فهي تشكل محطات حاسمة في حياة الطفل وقد احتفل المجتمع بكل مرحلة تمر بها حياة أطفالهم.

. أ . مرحلة الجلوس والحبو

يحتفل بالصبي عندما يبدأ في الجلوس وتعد هذه المرحلة من أهم المراحل التي يمر بها الطفل، وقد جرت العادة على التدوير بالطفل إذ تجلسه أمه وسط وسائد محاطة به من جهة أو يقمن بفرش صندوق من خشب يوضع به بساط ثم يضعن الطفل في الوسط. ومن المقولات الشفهية التي كن يرددنها عند بداية جلوسه " **الطفلة في الرابع تتربع والطفل في الخامس يركب فارس**"

ب . مرحلة إخراج الأسنان

تعتبر مرحلة إخراج الأسنان عند الطفل الرضيع من أصعب المراحل العمرية التي يمر بها فهي تشكل مرحلة موت لما يمر به حال المولود من تغيرات تطرأ على جسده كالتقيؤ المفرط، والحميات الشديدة، فتحرص الأمهات على تغذية أطفالهن غذاءا يسرا كالحليب لضعف معدتهم، وكثيرا ما تردد هذه المقولة لما لها من تعبير عن هذه المرحلة التي يمر بها الطفل في حياته " **كي يطلعو سنيناتو وجدولو كفيناتو**" فإذا حضر وقت نبات الأسنان تدلك لثة الطفل كل يوم بالزبدة ويحذر كل الحذر وقت نباتها إلى جانب تكاملها من الأشياء الصلبة لما لها من ضرر على الطفل، ومن العادات المصاحبة لهذه المرحلة أنه حين تظهر أول سنة في فم الطفل أو يتم عددها تعمد الأسرة إلى تحضير أكلة شعبية تسمى بالسليقة وهي عبارة عن حب من القمح والحمص مسلوقين في الماء مع القليل من الملح، وتوزع هذه الأكلة على الأطفال الصغار والجيران وتتفاءل العائلة بهذه الأكلة خيرا، فالقمح يرمز إلى الخير الكثير والخصوبة في كل شيء، كما جرت العادة بتوزيع التمر والحلوى للأطفال وأمرهم بالجري والتسابق عليها حتى يسهل نمو الأسنان بسرعة .

ج . **مرحلة قص الشعر**

عند انقضاء السنة الأولى من عمر الطفل تحتفل الأسرة بعيد ميلاده الأول ويكون ذلك بقص شعر الطفل، فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه وقد يتخذ أثرا له تمارس عليه بعض العمليات السحرية التي تشكل خطرا على حياة الطفل، ومن العادات المصاحبة لهذه المرحلة أنه عندما يقص شعر الطفل يوضع مما قص منه في إحدى النعاج أو العنزات التي تصبح ملكا له في المستقبل أو يوضع تحت صخرة، كما يصنع له الرفيس وهي تحلية مكونة من أبراج ملة مرحية مكونة من الدقيق وسمن وملح وتخلط وتشكل في هيئة قرص ثم تقص إلى معينات وتخلط مع الزبدة والعسل، أما الفتاة فيقص خصلة من شعرها بعد مرور العام وترمى في واد أو مجرى مائي حى ينمو بسرعة.

د **. مرحلة المشي**

تعتبر مرحلة المشي من أهم الخطوات التي يجتازها الطفل في حياته" فلا يحمل الطفل على المشي قبل وقته لما يعرض أرجله بسبب ذلك إلى الإنفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك"[21]. يبدأ الطفل بوضع أولى خطواته المرتجفة على الأرض ويقوم الأهل بمساعدته على ذلك الذين يقومون بدورهم بترديد بعض الأهازيج المشجعة للصبي على رسم خطوة ثانية وثالثة ومنها نذكر : [22]

دَادِاشْ دَادِاشْ كْبِرْ وِعَاشْ وَعَادْ يُلَقِطْ فِي اَلْقَشْقَاشْ

دَادِشْ دَادِشْ كْبِرْ وَعَاشْ وَعَادْ يُدَدِشْ فِي لِكْبَاشْ

أما بالنسبة للطفل الذي يتجاوز مرحلة المشي الطبيعية ولا يستطيع المشي يسمى في المنطقة بالكمشي، وعليه كانت عائلته تقوم له بطقس يسمى دوار الكمشي ويكون ذلك بجمع سبع عذارى يطلب منهن حمله والدوران به على سبع بيوت مع ترديد المقولة الأتية: "**هالكمشي هالكمشي أعطوه لقيمة باش يمشي** "، إذ يحضرن من كل بيت حفنة من الدقيق والقليل من الحليب بعد جمعها تصنع العائلة المعنية بالطفل أكلة الكسكسي وتقدمه للحاضرين من العذارى وأطفال المنطقة.

6. عادات الاحتفال بالختان:

يعتبر الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده وكمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل للفطرة التي فطرهم عليها، فهو أحد المحطات الحاسمة في رحلة الإنسان عبر الحياة والتي تدل على تجاوزه مرحلة الأولاد ودخوله مرحلة الرجولة أو الشباب وعلى أداء واجباتهم الدينية والزوجية. وهو من تمام الحنيفية فإن آباء الحنفاء إبراهيم عليه السلام كان أول من كلف بالختان وهو ابن الثمانين سنة بالقدوم أي قطع الجلدة بالآلة المعروفة. فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "أختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن الثمانين سنة بالقدوم "[23].

والختان بمنزلة الصبغ أو التعميد لعباد الصليب في المسيحية فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء العبودية، ويقولون الآن صار نصرانيا فشرع الله تعالى للحنفاء صبغة الحنفية وجعل علامتها الختان [24]، قال الله تعالى "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون "[25].

إن ممارسة عادة الختان أو الطهور هي بمثابة انتقال أو تأهيل إلى مرحلة الرشد من خلال المرور ببعض الطقوس والممارسات الشعائرية المصاحبة لها، وممارسة الختان التي بمقتضاها يصبح الأطفال قادرين على تقلد أدوار البالغين أو الراشدين "[26].

وقد طبق سكان المنطقة سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فعادات الاحتفال بهذه المناسبة تختلف من منطقة لأخرى، ويقوم بعملية الختان رجل مختص وارث لهذه المهنة على أجداده ويسمونه مطهر أو بالطبيب الشعبي حيث يستعمل المطبب الشعبي في ذلك أداة تسمى الشفرة قديما ثم يجلسون الطفل فوق قصعة من خشب، ويقوم المطبب الشعبي بتطهير الطفل وكانوا يستعملون الزبدة كعلاج للتداوي بها أو زيت الضرو.

ومع التطور المعيشي أصبحت عملية الختان تتم بصورة مباشرة في العيادات المتخصصة وعلى يد طبيب مختص في المهنة، فتتخذ العائلات فصل الصيف وأكثرها في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان أو في المولد النبوي الشريف تبركا وتيمنا بهذه الأيام المباركة، وفي ليلة اليوم الذي تتم فيه عملية الختان توضع الحنة للطفل العريس ويلبس قميصا أبيضا (قندورة) وقبعة حمراء (كبوس)، وحذاء مطرز بخيوط ذهبية، ويكون وضع الحنة في وسط من النساء اللواتي يتنافسن في ترديد مختلف الأغاني مع رقصهن المصاحب للزغاريد ويكون الجو بهيجا يملأه طلقات البارود احتفالا بالعريس الصغير، ومن العادات التي تجرى أثناء حفل الختان أن والدة الطفل العريس تقوم بوضع صرة وهي عبارة عن قطعة قماش حمراء بها القليل من الملح يعقد بخيط أحمر ويربط في رجل الطفل اليمنى اتقاء للعين والحسد ولكي لا تقربه الأرواح الشريرة. وفي اليوم المشهود يلبس الطفل ثياب الختان التي احتفل بها في ليلة الحنة كما تلبس أم الطفل أثناء ختان ابنها خلخالا في رجلها اليمنى ثم تضع كلتا رجليها في الماء البارد وتمسك مهراسا وتدوي به وهي تردد الأغاني ومعها تعلو الزغاريد، ومن الأغاني التي كانت تردد ها النسوة احتفاء بهذه المناسبة : [27]

طَهِّرْ طَهِّرْ يَا الطَّهَارْ وَسَيِلْ مِنْهَا الدَّمْ

تَفْرَحْ لُمِيمَه وَيِتْلَمُوابْنَاتْ اَلْعَمْ

يُفَرِكْتُوَالْبِيْتَه وَيَاكْلُوا مَاثَمَه

يذهب الطفل المختون رفقة أهله لأداء عملية الختان في موكب من السيارات، وبعد الإنتهاء من عملية التختين يعود الطفل إلى منزله فتستقبله النسوة بالزغاريد والرقص وطلقات البارود كما تقدم له الهدايا ومبالغ مالية تهنئة له بهذه المناسبة، ويحضر العشاء للمدعوين كما يقدم مختلف أنواع الحلويات وخاصة طبق الرفيس احتفاءا بهده المناسبة السعيدة.

خاتمة:

تعد عادات الاحتفال بدورة الحياة من أهم المحطات التي يجتازها الإنسان في الحياة، والتي ينتقل من خلالها من مرحلة إلى أخرى عبر ممارسات احتفالية قولية أو فعلية. ومن خلال ما تم ذكره يمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج منها:

- الدور الكبير الذي تلعبه العادات الشعبية في الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه، باعتبارها فعل اجتماعي ذات قوة معيارية تتطلب الامتثال الاجتماعي.
- تعكس الاحتفالات مدى التضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وهي بالتالي تنظم سلوكات الأفراد من خلال الإيماءات الفردية والجماعية.
- يحتفل التراث الشعبي بالطفل لأنه يشكل بداية الحياة، وهو في ميلاده ونموه وفطامه رمز متجدد لتجدد هذه الحياة
- الدور الكبير الذي تضطلع إليه الأغنية الشعبية في ترسيخ القيم الثقافية الخاصة ميلاد الطفل في رسم مظاهر احتفال الشعب و تجسيدها لواقعهم المعاش.

- يجب على الدارسين الاهتمام بالعادات المتعلقة بالميلاد والتمسك بالأصيل المتوارث عن الأجداد، مع الحفاظ على هذا التراث الغني بالمعاني الروحية السامية من الاتجاهات الضاربة بفعل العولمة وتمازج الثقافات، لأنه يشكل هوية الشعب وانتمائه الاجتماعي والثقافي.

الهوامش:

1. علي الزين، العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، ط1،1977،
2. محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، ط1، 2006، ص 37
3. ينظر: فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي عثمان، دراسات في التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، ط2008،1، ص 33
4. فاروق أحمد مصطفى، الأنثربولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، دط، 1429هـ/2008، ص 76
5. ينظر: عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1،2006، ص 152
6. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الجوزي، مصر، ط1، 1431هـ/2010، ص 104
7. ريتشارد دورسون، نظريات الفلكلور المعاصرة، ترجمة حسن الشامي، مكتبة الجامعة المصرية، دط، دت، ص13
8. ينظر: فاروق أحمد مصطفى، مرفت العشماوي عثمان، دراسات في التراث الشعبي، ص133
9. سورة الكهف، الآية 46
10. ليلى الصباغ، المرأة في التاريخ العربي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د ط، 1975، ص78
11. الراوية: مسعودة جودة، تاريخ المقابلة:03|03|2014، التوقيت:11:00سا، العنوان: بوثلجة
12. إسماعيل ملحم، كيف نعتني بالطفل وأدبه، دار علاء الدين، دمشق، ط1، 1994، ص 20
13. الراوية: الزهرة عياد، تاريخ المقابلة: 21|03|2014، التوقيت:12:00سا، العنوان: الزيتونة
14. ابن القيم الجوزيه، تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: محمد نصر أبي جبل، مكتبة مصر، ط1، 1431هـ/2010، ص93
15. الراوية: حدة زويني، تاريخ المقابلة: 20|03|2014، التوقيت: 10:00 سا، العنوان: بوقوس
16. الراوية: حدة سلطاني، تاريخ المقابلة:12|04|2014، التوقيت: 16:00سا، العنوان: عين الكرمة
17. سليمان بن قاسم الفيفي، قول الرشاد في إنجاب وتربية الأولاد، د ط، 1412هـ/1992، ص 44
18. ابن القيم الجوزيه، تحفة المودود بأحكام المولود، ص 58.
19. ابن القيم الجوزيه، تحفة المودود بأحكام المولود، ص 31.
20. الراوية: حدة سلطاني، تاريخ المقابلة:17|03|2014، التوقيت:17:00سا، العنوان: عين الكرمة
21. ابن القيم الجوزيه، تحفة المودود بأحكام المولود، ص 201.
22. الراوية: بهجة سلطاني، تاريخ المقابلة:02|04|2014، التوقيت: 11:00سا، العنوان: الزيتونة
23. ابن القيم الجوزيه، تحفة المودود بأحكام المولود، ص 132 .
24. ينظر:سليمان بن قاسم الفيفي، قول الرشاد في إنجاب وتربية الأولاد، ص 58.
25. سورة البقرة، الآية 138.
26. محمد عباس إبراهيم، الثقافة الشعبية الثبات والتغير، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2009، ص 115 .
27. الراوية: الزهراء عياد، تاريخ المقابلة:21|03|2014، التوقيت:12:00سا، العنوان: الزيتونة.